ساعات في هياكل الشعراء — ١

ايليا ابو ماضي

ليوسف البعيني

مسحةٌ ضافية من التفكير، وتأملٌ عميق بعيد القرار، ورباب شجي عذبُ الأنغام، وخيالٌ مزهوّ يشدُّ أطنابه الى النجوم ويبسط ظلاله على مدى الأفق . . . كلُّ هذا تلمسهُ الروح وهي تتهادى مع — أبي ماضي — في ذرى الشعر، وفوق متون سحابه

إنما الشاعر العبقري — ايليا أبو ماضي — لونٌ زاهر نضير لا يتمازج مع غيره من الألوان، ومزيّةٌ غريبة تختلف عن جميع المزايا . . . وهي تلك النغمة المبتكرة التي تسمع في قراراتها أعذبَ ما تشتاقهُ النفس، وأطربَ ما تحلمُ به القلوب والأرواح!

ما من مرّةٍ قرأتُ بها — أبا ماضي — الا حملتني أبياتهُ المبتكرة الى عالمٍ بعيد كلهُ رؤى وأحلام . . . عالم حافل بالصور يفتح للمخيلة مغالقَ الالهام، ويسكبُ في مراشفها الظامئة خمرة الشوق والحنين والتذكار

وحسبكَ أن تقرأ قصيدةً واحدة لهذا الشاعر المبتكر المجدّد حتى تنسى يأسك ان كنت يائساً، ودموعك إن كنت باكياً، وكآبتك الخرساء ان كنت كئيباً . . . أقول هذا لأنّ صاحب «الجداول» تجثم في صدره أسرارٌ علوية مروّاة بندى الحكمة ومفعّمة بفهم الحياة ومعانيها فانّ من تتفتق أكمام شاعريته عن مقاطعَ ساحرة كهذه المقاطع

مات النهار بن الصباح
فلا تقولي كيفَ مات .
إن التأملَ في الحياة
يزيدُ أوجاع الحياة

لينَ خواطر روحيه موحية سموية تستقطر الوحي من أجواء مجهولة ثم تسيله في كأس

ممطرة اذا لامستها شفاه الصوفي المتأمل غمرته نشوة من الاحلام شبيهة بضباب الفجر قبل أن يمسه شعاع الشمس ، أو وهج الضحى !!

***

كان من محاسن التجديد ومن نعمه ، بعد انشاق فجر جماله وتأرّج أزاهير ربيعه ... كان من بعد كل ذلك ان يتقظ الشعراء وتنبه الملهمون الى ابتداع ناحية جديدة في الأدب ترضي الذوق الانساني الشامل وتؤجج في العاطفة الضافرة المترنبة شعلتها الزافرة . وقد ضل الشعراء مرتادين جميع أودية الفن ... فمنهم من توغل في سراديب القلب المظلمة مستخرجاً منه ميوله وأحلامه ، ومنهم من جلس على شاطىء بحر الحياة مصغياً الى همس أمواجه المزبدة . ولكن قلما أبدع شاعرٌ من شعراء العربية ، على كثرتهم ، بتصوير موقف المغرم للدقف في آخر ساعة من ساعات حياته ... ثم قلما أبدع شاعرٌ برسم نفس موحشة ، كئيبة ، متألمة غابت نظراتها المتعبة في لجج الموت كما أبدع — ايليا أبو ماضي — بتشخيص كوامن قلبه في قصيدته الخالدة — ابنة الفجر — ولو لم يكن لأبي ماضي من شعر سوى هذه القصيدة لكفى بها حتى تسنّمهُ أسمى المراتب في دولة الوحي والالهام . قال :

أنا ان أغمضَ الحِمام جفوني ودوى صوت مصرعي في المدينه
لا تصيحي وا حسرتاهُ لئلاّ يدركَ السامعون ما تضمرينه
واذا زرتني وأبصرتِ وجهي قد علا الموتُ شكهُ ويقينه
غالبي اليأس واجلي عند نعشي يكون أني أحبُّ السكينه
واذا خفت أن يثور بك الوجدُ فتبدو أسرارنا المكنونه
فارجعي وابكي دموعك سرًّا وامسحي باليدين ما تبكينه

***

واذا ما وقفتِ عند السواقي وذكرتِ وقوفنا وسكونه
حيثُ حاكَ الربيع للروض ثوباً كان أحلى لديه لو ترتدينه
فالثمي كلّ زهرةٍ فيه اني كنتُ أهوى أزهاره وغصونه
ثم قولي للطير مات حبيبي فلماذا يا طيرُ لا تبكينه؟

***

أنا لا أعرف بين شعراء العربية في مختلف أدوارهم من انتحى هذه الناحية الوجدانية في تصوير العواطف ، وتقطير الشعور والاحساس قادراً ان يعطي الناس صورة مؤثرة كهذه الصورة

الساحرة بخطوطها وألوانها وبما يُفعمها من حرقة ومرارة . . وكنت أعتقد قبل اليوم ان الشاعر الخالد — الفريد دي موسّه — في قصيدته الجليلة « تذكري » لم يترك لغيره مجالاً لكي يكتب أشعاره بدم فؤاده . ولا أغالي اذا قلتُ ان (ابنة الفجر) تقع من النفس موقعاً مؤثراً أكثر من قصيدة الشاعر الفرنسي الكبير . واني لاذكر الآن كلمةً كتبها اليّ أديبٌ غربيٌ متفنن بعد ان أطلعته على الأبيات التالية ، وهذا الأديب هو الشاعر المشهور — جان دي لا ميرّ — الذي أحبّ الشرق حبًّا لا شائبة فيه :

وإذا ما جلستِ وحدكِ في الليلِ وهاجتْ بكِ الشجون الدفينه
ورأيتِ النيومَ تركضُ نحو الغر ب ركضاً كأنّما مجنونه . . .
ولحظتِ من الكواكبِ صداًّ ونفاراً ، وفي النسيمِ خشونه
نفضيت على الليالي البواقي وحننتِ الى الليالي الثمينه
فاهجري المخدعَ الجميلَ وزوري ذلكَ القبرَ تم حي قطينه
وانثري الوردَ حولهُ وعليهِ واغرسي عندَ قلبهِ ياسمينه

***

أما كلمة الشاعر الغربي فهي هذه :

« إنّهُ تسلني ، بل تحملني على اجنحة الميولى ، هذه النفثةُ الشجيّة المتلفعة باسرار الشرق واحلامه ... وكلُّ ما في الروح الشاعرة من هوى ، وخشوع ، وتنهُّد تبخرتْ به ريشة (أبي ماضي) المعطرة في هذا المقطع الساحر الذي أطلعتني عليه . فهل في الشرق ، بين خرائبه الرهيبة ، وفي ظلال اعمدته السحرية ، شعراء آخرون يشاركون — ايليا أبي ماضي — في تتبع موحياته وانشاد روائعه المطلّة برقائق النفس السامية وبأمانيها ؟ »

***

وعندي انّ هذه القصيدة الخالية هي من أجود ما جاءت به مخيلات الشعراء ، القدماء منهم والمحدثين . وانّ مانيها من أسى مذيب ، ويأس أبكم ، ومرارة سوداء ، وقنوط جارح ... ان كلّ ما فيها من هذه الالوان والميول ليشبهُ مأتماً من مآتم الارواح ، او مناحة من مناحات القلوب . ولكن — أبا ماضي — على الرغم من كل ذلك أمسى اليوم لايميل الى هذه الطريقة الوجدانيّة المؤثرة إلاّ إلماماً مختيراً عليها التوغلَ في كهوف الفلسفة الصوفيّة بما فيها من تفكير عميق واشكال متعددة الأدمغة والأصباغ . وأنا اقدّر ان الاعوام الاعوام السائرة وراء اشباح

الموت هي التي جنحت بالشاعر العبقري الى اعتناق جوهر الحياة وتأدية رسالتها العلويّة

إن الشاعر المبدع ، لا الشاعر الزائف المقلد ، عندما يتجنح شعوره ، ويختمر احساسه ، يتغير لون أحلامه وتتخذ انغام ربابه اصداء مختلفة فتمسي اشجار صدره كشجرة الحقل وقد قاربت زمن القطاف ، او كالسنبلة وقد تهيأت للحصاد ... وعلى هذا المثال يحدث للشاعر الملهم الموهوب . وايليا ابو ماضي في قصيدته — الطلاسم — يشبهُ اغراس الطينة المتقلة بالجنى والاثمار . ومثل الجدول المنساب الذي يوقع خريره اللحون على الحصى والاعشاب وهو تساؤلهُ الغامض المبهم عن اسرار انسيابه ... هكذا يتساءل ابو ماضي عن معاني حياته ، حياته المتأججة بأشواق التأمل والمحجوبة بضباب الاماني فهو يقول :

جئت ، لا أعلمُ من أينَ ، ولكني أتيتُ
ولقد أبصرت قدا مي طريقاً فمشيت ...
وسأبقى سائراً ان شئت هذا ام أبيت
كيف جئت ، كيف أبصرت طريقي ؟
لست أدري ...

***

ان في صدري يا بحر لاسراراً عجابا
نزلَ السترُ عليها وأنا كنتُ الحجابا..
ولذا ازداد بُعداً كلما ازددتُ اقترابا
وأراني كلمـــا اوشكتُ أدري
لست أدري ....

***

ان هذا التساؤل عن غوامض الحياة هو الحياة ذاتها . وقد سبق للشاعر الانجليزي الساخر المتهكم — توماس هاردي — ان نظم قصيدة رائعة تتناسب مع طلاسم الشاعر اللبناني . ولكن — هاردي — ختم ملحمته بهذا المعنى . انّ لذة الحياة في جهل اسرار الحياة ومكنوناتها — وهذا المعنى على ما فيه من شامخ النظر ومن تقليد لسر الخيّام ومحاكاة أبيقوريّة محضة يدلُّ على تصور الفكر ووهنه امام فلسفة الوجود . اما ابو ماضي فقد اقترب من كنه الموضوع بهذه الابيات وهو يعبّر بها عن حقيقة الحياة

هيَ في رأسي فكرٌ ، وهي في عينيَّ نور
وهيَ في صدري آمالٌ ، وفي قلبي شعور
وهي في جسمي دمٌ يسرب فيه ويمور

***

ولايليا ابي ماضي ناحية يشابها في الشعر العربي مع اخوانه اعضاء — الرابطة القلمية — وهي تلك الناحية التي نصبت مضاربها في الغرب عصبة ادبية راقية تألفت في الجيل الماضي تحت رعاية الشاعر الناثر — تيوفيل غوتيه — ومن يقلب صفحات « الجداول » يرى بين ابياتها ما يؤكد صحة قولي !

لقد طالعت أخيراً مقالاً طويلاً لاديب عربيٍّ مشهور ينتقدُ فيه الكاتب البلجيكي الكبير — موريس مترلنك — وفنَّهُ الرمزي الذي يوشّح صفحات كتابه (حياة النحل) حتى لكأنَّهُ يريد ان يحذّر الناشئة الجديدة في الشرق العربي من شرّ هذا الفن الغريب عنا بميوله ومقاصده وقد غاب عن هذا الاديب أن الشرق عرف الفن الرمزي في كتب انبيائه الاولين.. وهو على ما فيه من جمال يعبّر عن الحياة تعبيراً صادقاً ويأتي بالمعاني السهلة المثال. فلنقرأ معاً هذا المقطع الصغيرَ بحجمه، الكبيرَ بمغزاه، وقد توّجهُ صاحبُ الجداول بعنوان — الغدير الطموح —

قالَ الغـــديرُ لنفســه يا ليتني نهرٌ كبيرْ
مثلَ الفراتِ العذب او كالنيلِ ذي الفيض الغزيرِ
تجري السفائن موقراتٍ فيـــه بالرزق الوفـــير
هيهات يرضى بالحقـــيرِ من المنى إلاّ الحقـــيرُ
وانسابَ نحوَ النهر لا يلوي على المرج النضير
حتى اذا ما جاءه غلب الهدير على الخرير

***

إن صاحب الجداول شاعر كبير يخترق شعوره سجف الليالي والايام ومفكر ذو فكر محسوس بكهرباء التيقظ والاستجداد . ولا شك عندي ان منظومات هذا الشاعر الخالد سوف تهدم أسوار التقيد والجمود ناحتةً من حجارتها تمثالاً لربة الوحي والالهام. وإني لأختم هذه العجالة بعاطفة صادقة يمازجها التقدير والاعجاب بشعره العذب المخضب بنضرة الروح ، والمخضل بلون الحياة !